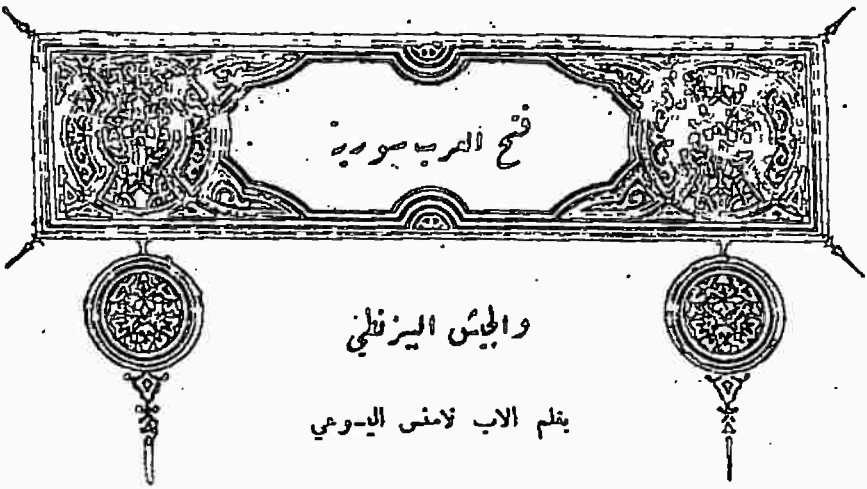

جاء نبي الاسلام في ٨ حزيران ٦٣٢ . فنشبت في بلاد العرب ثورة اهلية دامت سنة وعُرفت بحركة « الردّة » ارتدّ فيها كثير من العرب عن الدين الجديد . فقاومهم ابو بكر بشدّة وصرامة . وما كاد يخنق تلك الثورة ، في منتصف سنة ٦٣٣ ، حتى كان قد تألف عدد من شراذم البدو في المدينة وساروا في طريق فلسطين . ولم يكن بين زعمائهم من فكّر بان يستأذن ابا بكر او بأن يسأله رأيه في الامر . ولم يكن ابو بكر ليستمض او ليتأثر من رحيلهم على ذاك الشكل . بل بالعكس فانه رأى فيه مُتنفّساً لذاك الضغط الفكري وحلًا موافقاً اذ ذاك ، وقد هاجت الخواطر وحرج الموقف على اثر انتخاب الخليفة الاول ، وما وليه من انتقام دموي شديد لقمع حركة الردّة .

وما عسى ان تصادف تلك الشراذم في مسيرها نحو الحدود السورية ؟ ستصادف دون شكّ حاجزاً كان يظهر شامخاً متعالياً ، حاجز الامبراطورية البيزنطية . ولكن ما وراء هذا الحاجز ؟ لا شيء يستحقّ الذكر سوى تذكار او اسم مشهور قديم هو اسم رومة . فان بيزنطية التي كانت تدّعي بانها تكتمل الامبراطورية الرومانية ، كانت تحتفظ بالاسم القديم . وكان اسم « الروم » لا يزال يؤثر التأثير الشديد في ابناء القفر الساذجين . يبرهن عن ذلك ما نراه من مظاهر هذا التأثير في لغة العرب الحربية من مفردات عديدة « كالبرج »

«والنصر» ... مأخوذة عن لسان اللاتين . وما نراه في القرآن ايضاً من تلميح الى ذاك النفوذ . فان السورة الثلاثين منه تُسمى «سورة الروم» يُشير فيها النبي الى انتصار الفرس على البيزنطيين ، ويتابع : «وهم (الروم) من بعد غلبهم سيغلبون ... ويومئذٍ يفرح المؤمنون» . ويعني بالمؤمنين جمهور المسلمين . ومن ذلك ما نتحققه ايضاً في غزوة تبوك ، وهي الغزوة الوحيدة التي قاد بها محمد رجاله الى جهة الحدود السورية ، فانه ، وهو الكتوم لغاياته الحربية عادةً المتحفظ في ذكر مقاصد غاراته ، تكلّم هذه المرّة واخذ يعدّ رجاله ويهيّئهم قائلاً انه يقودهم نحو الروم . كل هذا يدلنا على ما كان للروم من تأثير في اذهان العرب اذ ذاك . ولكن لنعد الى ذكر الحاجز البيزنطي :

من حِنو الفرات المستدير نحو خليج اسكندرونه في الشمال الى قرب خليج العقبة في الجنوب ، كانت المعاقل والحصون تتتابع على سلسلة مارّة بمنطقة تدمر ، وبادية الشام ، وما وراء الاردنّ . وكل هذه المراكز كانت تقوم بحراسة آبار المياه ، وبالسهر على الطرق المؤدية الى سورية الشرقية . ولا تزال اطلالها الضخمة ، بعد مرور اربعة عشر قرناً ، تثير فينا عواطف الاعظام والاعجاب . اذ لا نعرف غير الصليبيين شعباً امكنه ان ينافس الروم في المصانع الحربية في سورية . ولكن من كان يقوم بحماية هذه المعاقل ؟

كانت الحروب المستديمة المتتابعة بين الفرس والبيزنطيين قد صرفت انتباه بيزنطية عن كل شيء سوى حدود فارس ، ولم تكن لتتصوّر خطراً من جهة العرب ، فرفعت عن الحدود السورية مَن كان يقوم بحراستها من رجال الحفر القليلين ، واستبدلت بهم فرقاً من البدو يقودها زعماء من عرب سورية جعلت لهم إمارة خاصة مركزها الشام ، وهي امارة الغسّانيين . على ان الاكتساحات الفارسيّة (٦٠٨–٦٢٨) قضت على هذه الامارة ، فساد الاضطراب مدّة ، حتى عقد الصلح بين الدولتين العدوّتين . عند ذاك تقدّمت الفرق البدوية مطالبةً باجورها قبل متابعة الخدمة العسكرية . فاجابها الحصيّ امين الصندوق بهذا الجواب المؤلم : «ان الامبراطور الالهي لا يجد مالاً عنده لعساكره ، بل يجد مالاً يطرحه للكلاب !» فكان ذاك الجواب من اقوى العوامل على اثارة الحفائظ ،

وعلى جعل عرب سورية يزدادون كرهاً للبيزنطيين واستعداداً لنصرة اعدائهم الفاتحين ، فيمدونهم باختباراتهم الحربية ومعارفهم الجغرافية والتخطيطية.

وليس من عجب بعد هذا في ان تكون الشراذم العربيــة التي سارت من المدينة قد مرّت دون صعوبة ولا مقاومة امام الابراج المنيعــة ، المتابعة على الحدود ، وهي خالية من الحامية . ولا نستغرب ذلك اذا عرفنا ان السلطات البيزنطية في سورية لم تعر هذا الامر اقلّ انتباه بادئ بدء . لأنها كانت قد تعوّدت مثل هذه الغزوات البدوية التي كانت تنعتها « بحوادث الحدود » . على انه لم يمض القليل حتى التحقت شراذم جديدة بالشراذم الاولى . ولم يلبث عدد الغزاة ان بلغ العشرة آلاف . فازداد النهب واتسعت البلاد المكتسحة . فكان الغزو البدوي المنظّم بكل ما يجرّه من خراب ودمار . وكانت جيوش الغزاة تهبّ كالسموم وتتساقط على السكان وقد ملكهم الرعب لتلك المفاجأة ولعدم تمكنهم من الدفاع . حتى تفاقم الخطب فدفــع البطريق سرجيوس ، صاحب قيسارية ، الى الخروج من سكينته . فجمع ما وقع تحت يــده من العساكر المأجورة ورجال الدرك . وسار في بضع مئات الى تأديب البدو ، وهو يحتقرهم كسائر البيزنطيين. فكان من نتيجة ذلك انه لم يتخذ المعدّات اللازمة ، بل ظلّ مستخفاً بالامر حتى التقى بالعرب ، وقد جمعوا جيوشهم في منخفض العَرَبة غربي البحر الميت . فسحقوا بعددهم الوافر رجال سرجيوس في تلك الوقعة . وهكذا غدت سوريــة الجنوبية مفتوحة الابواب لاستقبــال الغزاة (شباط ٦٣٤).

* * *

وها اننا نرى البدو ضائعين في تلك المدنيّة ، على مئات الكيلومترات من قفارهم ، ولا سلاح لهم الّا سرعة انتقالاتهم وهو افضل ما يتكلون عليــه من طرق الدفاع. لأن القفر ، مهما كان بعيداً ، لا يبعد على ابلهم السريعة . فهم اذاً ينهبون ويجدّون في النهب. ينظرون طوراً الى جهة البيزنطيين راقبين ، وتارةً الى ملاجئهم الحصينة في القفار . ولهذا نقول: ان فتح سورية الحقيقي لم يكن بدأ بعد ، بل ان الايام كانت تمدّه شيئاً فشيئاً. وان الباحث ليعتقد لأول

وجلة ان النصر سيكون للبيزنطيين لما يخال عندهم من الفضل على البدو في المعدّات ، وطرق التنظيم ، ورسم الخطط ، والتقاليد الحربية المأثورة عن الرومان . على انه ينبغي ملاحظة واحدة مهمّة تميّز الرومان عن الروم ، وهي ان الاوّلين لم يرفعوا قطّ جيوشهم الخاصة من سورية . اما الروم او البيزنطيون فانهم ، لما احتاجوا الى الجيوش ، خالوا من الكافي ان يعوّضوا عنها بالمعاقل والحصون تقيم بها المقاتلة المأجورة . فاقاموا حول اكثر المدن السورية اسوارًا حصينة بابواب محكمة القفل . وشيدوا في اهمّها قلاعاً منيعة . فكان لهندستهم الحربية تقدّم لا يُنكر . الّا انه لم يكن لتلك الاسوار ، ولا في تلك القلاع ، من الحامية ما يبعث الى الطمأنينة . فان اكثر العساكر كانت مأجورة ، كما قدّمنا ، ولم تكن السلطة تهتمّ بتنشئة القوّاد وتدريبهم على الحروب والمعارك . وهذا ، مع قلّة عدد المقاتلة والفوضى الغالبة في التنظيمات العسكرية ، اهم ميزات الجيش البيزنطي في سورية في القرن السابع . ومن اجلى مظاهر هذه الميزات انه قُبيل الفتح الفارسي ، كانت انطاكية ، المدينة الكبيرة ، خالية من الحامية .

وبالاختصار فاننا نرى مشكلًا تاريخيًا مهمًا اذ نتحقّق بلادًا غنية كسورية ، آهلة بنحو الخمسة ملايين ، يفتحها بضعة آلاف من البدو في اقلّ من عشر سنوات ! هذا هو المشكل التاريخي ، فما هو حلّه المعقول ؟

كان الجيش البيزنطي يدعى رسميًا الجيش الروماني ، وكان يدّعي انه خليفة ذاك الجيش . فبينما كانت اليونانية لغة الادارة المدنية ، كانت اللاتينية لا تزال لغة الجيش والمعاملات العسكرية . وهنا ايضاً لا نرى سوى مظهر او شعار لا شيء يذكر وراءه . فان الجيش لم يكن وطنيًا ، ولم يكن فيه شيء من ميزات الكتائب الرومانية المؤلّفة من الوطنيين الاحرار . وجلّ ما يُقال عن البيزنطيين انهم كانوا يريدون ان يأمروا ويحكموا مناطق الدولة المختلفة ، ولكنهم كانوا يترفّعون عن القتال . ولم يبقَ اذ ذاك من وجود للخدمة العسكرية الجبرية . فكانت بيزنطية تأذن بالبدل العسكري بل تعزّز انتشاره . ثم كان الشعور كبيرًا ان الولايات ، وقد ثقلت عليها وطأة الضرائب

والجباة ، كانت قد اصبحت تميل الى الانفكاك عن جسم الدولة . إضف الى ذلك ان بيزنطية كانت تخاف من تأليف الكتائب المحلية التي كانت رومية قد استخرجت منها الفوائد الجمة. وكانت ترتهب من خطر ثورة القواد عليها. واذاً فلم يبقَ لها شيء من كتائب الكوماجينيين والقنسرينيين والحمصيين والحورانيين ؛ وكانت قد فقدت المشاة المنتخبين والرماة الحاذقين من التدمريين والايتوريين الذين كانوا يعاونون في ما سلف جيوش الامبراطورية في ساحات الحرب الاوربية والافريقية . كل هذا التنظيم كان قد اضمحلّ ، ولم يبقَ الّا عدد قليل من العساكر المحلّية المأخوذة من الولايات . ولكنّ اولي الامر لم يكونوا يعتبرونهم اعتبارهم عساكر الجيوش بل كانوا يستخدمونهم ، كلّاً ضمن منطقته ، للقيام باعمال رجال الشرطة من تعقّب اللصوص وقطاع الطرق ، والسهر على جباية الضرائب . وكان يأمرهم ضبّاط منهم لم يتعوّدوا القيادة ، ولم يمرّنوا على شيء من الاعمال العسكرية . وبالاختصار كانت الدولة لا تكترث لشيء من كل هذا.

من هؤلاء الشرط المحلّيين ، ومن هؤلاء الضبّاط المدعي الخبرة ، كانت تتألف الكتيبة التي قادها سرجيوس ، صاحب قيسارية ، فدحرها العرب ، كما قدّمنا . ولمّا لم يكن من جيوش بيزنطية منظمة على الحدود ، أُجبر رجال الشرطة السوريون على مقاومة الغزوات العربية ، فقاوموها مدة سنتين كاملتين حتى كانت وقعت اليرموك سنة ٦٣٦ . ولا غرابة ان تكون مقاومتهم ضعيفة ، ولم يؤهّبهم شيء لذلك . ونقول القول نفسه عن الضبّاط الذين كانوا يقودونهم ، واكثرهم من رجال الادارة أُخرجوا فجأة من دواوينهم الى ساحات القتال .

كانت بيزنطية لا تتكل الّا على كتائبها الرسمية ، وتفاخر بها مدعية انها الجيش الامبراطوري . اما في الحقيقة فكانت جيشاً مأجوراً بكل ما تجرّه هذه الكلمة من المعنى . كان ذاك الجيش يؤلف مجموعة غريبة من شذّاذ البرابرة او الاعاجم جُمعوا من المناطق البعيدة التي لم تكن لتخضع بسهولة لحكم بيزنطية . وكان اكثر هذه العساكر من الجبليين كالايزوريين والارمن واهل تراقية ، يُضاف اليهم عدد من صقالبة البلقان ، كانوا من أسرى الحروب

التي قاموا بها على البيزنطيين. واننا نرى الجيش البيزنطي ، في وقعة اليرموك ، يتألف خصوصاً من الارمن ومن العرب المسيحيين . وكلا العنصرين تابع للمذهب اليعقوبي. فهو اذاً يكره الامبراطورية التي كانت تضطهد ارباب هذا المذهب. ولم يكن ليجعلهم في خدمة بيزنطية الّا الوعد باجور عالية والرغبة في مغامرات قد تفيد الكثير من السلب . فكانت ابسط المعاكسات واقلّ الحوادث اهمية كافية لتثير فيهم الفوضى الاصلية الكامنة ، وتصرفهم عن حماية دولة ما كانوا ليشعروا اليها بصلة متينة . ولهذا نرى ان انكسار اليرموك كان سببه خيانة العرب السوريين ، وثورة الارمن الذين انتقضوا على قوّادهم وسط المعركة ونادوا بامبراطور من رجالهم.

نضيف الى ما تقدّم انه ، في جميع تلك المعارك ، كانت العساكر البيزنطية قليلة العدد للاسباب التي ذكرناها . فكان للعرب الاكثرية في كلها ما عدا موقعة اليرموك . ذكرت ذلك في كتابي « تاريخ سورية »[1] ، فردّت عليّ مجلة عربية دمشقية ردّاً شديد اللهجة حرّمت عليّ فيه ان أمسّ التقليد العربي التاريخي . على ان هذا التقليد غريب محيّر ولا سيما عندما يتلاعب بالارقام بكل سذاجة. فانه ، في ما خصّ وقعة اليرموك ذاتها ، يجعل تارة اعداء العرب ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وطوراً يبلغ بهم الى ٦٠٠,٠٠٠ . ثم ان التقليد نفسه ، بلسان البلاذري في « فتوح الشام » ، عندما يذكر سقوط قيسارية سنة ٦٤٠ ، يجعل في تلك المدينة ٧٠٠,٠٠٠ مدافع و٣٠,٠٠٠ سامري و٢٠٠,٠٠٠ يهودي. ويقول انه كان فيها ٣٠٠ سوق ، وفي كل ليلة كان يقوم بحمايتها ١٠٠,٠٠٠ جندي ! فليتصوّر القارئ عظمة هذه المدينة ، واتساع مساحتها !.. ثم يذكر ان الامبراطور هرقل نفسه لما سار بحملته الشهيرة على الفرس ، لم يمكنه ان يجمع من العساكر الّا عشرة آلاف.

* * *

فُتحت دمشق في شهر ايلول سنة ٦٣٥ . وكان هرقل في شمالي سورية يتمّ بجمع جيش جديد . فتمكن من تأليفه في اوائل سنة ٦٣٦ . واننا

(١) *La Syrie, précis historique, I, 59*

لنعرف كيف تألف هذا الجيش، وما هي العناصر العربية المتباينة التي جمعت في تشكيله. فكانت النواة مؤلفة فيه من رجال تعودوا الحرب قديماً وانتصروا في معارك الفرس الاخيرة، كانوا يقومون بواجبات الحامية في تراقية والاناضول، فأُخذوا من مراكزهم، وأُضيف اليهم عدة آلاف من السوريين بعد ان عُلموا مبادئ الحرب بسرعة كلية. اما اكثرية الجيش فكانت من الارمن، ومن العرب النصارى الذين توفق هرقل اخيراً الى ارضائهم. فيظهر مما تقدم ان اللحمة كانت اصعب من ان تكون وثيقة بين جميع هذه العناصر، وكذلك كان الاختلاف دائماً بين الضباط من روم وأرمن. لأن التشامخ البيزنطي كان يرى من الطبيعي ان يضحي الاسيويون، من أرمن وسوريين، بانفسهم في سبيل الامبراطورية، ولكنه لم يكن ليتنازل فيساويهم منزلة ورتبة. ومن المرجح ان الجيش البيزنطي كان يفوق الجيش العربي عدداً اذ ذاك. فانه كان يبلغ على ما يظهر ٣٠,٠٠٠ مقاتل، في حين ان البدو كانوا يعدّون ٢٠٥ الفاً. وكانت اولى المعارك في جنوبي دمشق، كان فيها الظفر للبيزنطيين. فتراجع العرب الى وراء اليرموك، وهو ساعد شرقي لنهر الاردن؛ فلتموا شعثهم واستعدوا للقاء الروم. وهناك حصلت الوقعة الشهيرة التي أيدت النصر للعرب بفضل ما ظهر من الخيانة المزدوجة في الجيش البيزنطي. بدأ التضعضع في صفوف العرب النصارى الذين لم يكونوا حصلوا على مطامعهم بعد فتراجعوا عن الحرب. ولم يلبث الارمن ان قاموا بالثورة التي اشرنا اليها، فشقّوا عصا الطاعة على القوّاد الروم ونادوا بقائدهم واهان امبراطوراً عليهم. فتضعضع الجيش وتفرّق رجاله حتى انه ثاني يوم المعركة (٢٠ آب ٦٣٦) لم يبقَ ذكرٌ في جهات اليرموك للجيش البيزنطي. وكان ذلك من حظّ البدو، فنالوا النصر في تلك المعركة الحاسمة.

ففتحت امامهم دمشق للمرة الثانية. وتبعت اثرها مدن الشمال. فكانت النتيجة اندحار مؤسسة حربية كانت تتباهى خطأً بالاسم الروماني، وهبوط نظام سياسي هبوطاً لم يكن على شيء من العظمة، فلم يترك مجالاً للأسف حتى بين مسيحيي سورية الذين كان قد مسّ عواطفهم الدينية، وأحفظ أنفتهم

القومية . وفي سنة ٦٤٠ فتحت قيسارية ابوابها بعد حصار شبه دائم استمرّ نحو سبع سنوات ، وذلك بسبب خيانة احد اليهود . ولم تلبث عسقلان ، القائمة على تلة عالية تُطلّ على المتوسط ، ان فُتحت اتفاقاً كما يقول مؤرخو العرب ، وبالحقيقة لفرط الملل والضجر ، فكانت آخر ما وقع في ايدي العرب من المدن السورية .

* * *

لقد اشرنا ، في ما تقدّم ، الى الاسباب الكافية لشرح سير الفتوحات العربية في سورية ، وما كان من ابتدائها في وقت وافقتها فيه جميع الاحوال المنصرية . على اننا لم نذكر ما كان اذ ذاك من اضطراب ادارة الامبراطورية ، وضغطها المالي على اثر الحملات المتتابعة التي قامت بها على الفرس . هذا الى ما كان يتصف به هرقل في آخر حياته من قلة الدهاء وعدم الاقتدار ، وكثرة الغرور بالنفس . ثم ما كان من وفاته ، التي وافقت سقوط قيسارية ، وما جرّته من ازمة وراثية أدّت الى هلاك ثلاثة امبراطرة في ظرف شهور معدودة . فكان من هذه العوامل ، في تعزيز تقدّم الغزاة ونجاح الفاتحين ، ما كان من تضعضع قوّاد الروم وعدم خبرتهم الحربية ، التي اشرنا اليها سابقاً .

وعلى الرغم من كل هذا ، فلا يزال المشكل قائماً لدينا ، في ما خصّ الحالة الاخلاقية النفسية . فهو ، في هذا المجال ، اظهر منه في السياسة والشؤون الحربية . لم نضرب صفحاً عن ذكر الانحطاط في النظام الحربي البيزنطي ، ولكن ذلك لا يمنع ان ذاك النظام كان يفوق دون شكّ نظام البدو . ولا يُخشى هؤلاء الّا في قفارهم بفضل ما تمدّهم به المناصر الطبيعية . ولم يكن لهم من السلاح اذ دخلوا سورية الّا الرماح والسهام . وفي عصر كانت الخيّالة اعظم الجيوش غناء في المعارك ، نرى الخيول كلّها في جانب البيزنطيين . امّا العرب فلم يكن لهم الّا الجمال حتى ان قوّادهم انفسهم كانوا يركبونها ، وكثيراً ما كان يركب المقاتلان او الثلاثة الجمل الواحد . وهو نقص ظاهر في تنظيم جيوش الفتح ، بخلاف ما قال كريمر (Von Kremer) من ان الجمل كان العامل الاكبر في الفتوحات العربية . وهو قول لا ينطبق الّا على الاقاليم

الصحراوية ، فان الجمل قد يكون سهّل على العرب فتح افريقية وصحارى آسية المتوسطة.

واذا درسنا جميع مظاهر هذا المشكل ، نرى ان اشدّ اعداء الامبراطورية الرومية كان ما دعاه المؤرّخون « بالتعصّب البيزنطي » . فانه نخر اساسات المجتمع والسياسة ، وادخل الانقسام والفوضى في المقاطعات ، وفي الكنيسة نفسها ، ولا سيما في الجيش . ولم يكن السوريون ليتفرّوا لمرقل اهماله الدفاع عنهم لدى هجمات الفرس . وكانوا يتألمون منذ ثلاثمائة سنة اذ يرون ادارة المملكة تضحّي بهم دون شفقة في سبيل العاصمة بيزنطية ، وفي سبيل اشباع جيش من الموظفين غرباء عن بلادهم متطفّلين الى اموالهم . وهي الحالة نفسها التي كانت تئنّ منها سورية مؤخّراً على عهد الاتراك . وكانوا ايضاً ينعون على دين الحكومة الرسمي ان يبقى آلة للسيادة الزمنية ، فيعمل على اعلاء شأن حكومة كان يئنّ تحت حكمها كثير من العناصر والشعوب المختلفة . ذاك مظهر من تسلّط الشعب اليوناني الذي كان يرغب في ان يسيطر ، في ثلاثة اقسام العالم القديم ، بواسطة الامبراطور والبطريرك ، بواسطة السياسة والكنيسة ، على اجسام تلك الشعوب وعلى نفوسهم ايضاً.

وقد ادّى الغرور بالمسيطر البيزنطي ان خال نفسه قد تحوّل الى شخص مقدّس بل مؤلّه ، فكان يخضع امامه عدد من المتزلّفين والخصيان ..وقد بلغ ان اخذ يذكر ، في مراسيمه ، « ضياء امارته المقدّسة » بل تجاوز ذلك الى التعبير عن « بهاء الوهيته الشاع على الكون » . وهل كان بامكان القيصر ، الغارق في هذا الضباب من الغرور والتزلّف ، ان يعير اذناً صاغية لشكاوى الشعب السوري وقد احاقت به التعاسة من جميع الجهات ؟ وبينما كان قوّاد البيزنطيين يتراجمون مندحرين امام البدو ، كان هرقل يغوص في ادقّ المناظرات اللاهوتية ، واعوص المشاكل في الفلسفة النظرية . وكان قد ادّعى بالرغبة في ارجاع الوفاق الديني بين السوريين ، فناصر بدعة جديدة ، هي بدعة المونوتلية او المشيئة الواحدة ، ونادى بها عقيدة للدولة ، راميا الى التسيطر على الكنيسة وعلى الضمائر . فكان يعيّن للاساقفة مرشّحه للكرسي البطريركي فينتخبونه ،

حتى اذا ملّ منه او جفاه ، حطّه عن عرشه » . والاساقفة في كل ذلك ، على قول مصدر تاريخي ، يخضعون بحق لمشيئة الامبراطور واختياره » . فكانت النتيجة ان اصحاب الرتب الكهنوتية في الكنيسة الشرقية اخذوا يتادون الاستعباد للسلطة الزمنية شيئاً فشيئاً مما دفع احد بطاركة ذاك العصر الى القول « يجب ان لا يفعل شيء في الكنيسة مخالف لارادة الامبراطور » . على ان التاريخ يعلمنا انه ليس من مصلحة الدولة ان تستعبد الكنيسة . ولم تنجح هذه الطريقة لا في العصور القديمة ، ولا على عهد نابوليون ، ولا على عهد النظام القيصري خصوصاً . لانها وسيلة للحطّ من شأن الكنيسة وتقويض نفوذها الاخلاقي . وقد ادّت هذه السياسة في سورية الى نتائج وخيمة ، فقسمت ايمان السكان ، ودفعت بالقسم الكبير منهم الى اعتناق بدعة الطبيعة الواحدة . اما السلطة البيزنطية فبدل ان تعمد الى المخالقة وحسن التأثير بالبرهان الصحيح لتردّ الجماهير عن تلك البدعة ، اخذت باشدّ الاساليب تضييقاً ، وابعدها عن العدل والانصاف كإلغاء الحقوق المدنية ، وحجز الاملاك ، والنفي . مما ادّى الى اثارة حفائظ الشعب وتذمّره الدائم . ولم تكن خيانة الجنود الارمنية والعربية في معركة اليرموك التي اشرنا اليها الّا نتيجة هذا الضغط الشديد ، واننا نذكّر المطالع ان اولئك الجنود كانوا من البدعة اليعقوبية المغضوب عليها . . .

فاين الغرابة في ان يكون الشعب السوري ، وقد صوّرنا حالته على قدر الامكان ، قد شاهد ، دون أسف ، تلاشي تلك الدولة التي كثيراً ما اضطهدته ! واين العجب في ان يكون قد رأى في ذلك عقاباً سماوياً لظالميه !